

المشكلة الخامسة : في العادة و الإرادة

العنصر : طبيعة العادة و عوامل اكتسابها

السؤال : هل العادة مجرد إعادة ؟

المقدمة : يتميز الإنسان في طبيعته بأنه كان من يستطيع تشكيل سلوكياته حسب مقتضيات البيئة وهو ما ييسر له عمالية التكيف وذلك من خلال العادة وهي قدرة مكتسبة على أداء عمل ما بطريقة آلية مع الدقة والسرعة والاقتصاد في الجهد والوقت ، وتعتبر العادة من بين الموضوعات التي شغلت اهتمام العديد من المفكرين وال فلاسفة وعلماء النفس أدت إلى تضارب في مواقفهم وتبليغ في تصوراتهم حيال طبيعتها وعوامل اكتسابها ، إذ يعتقد بعض منهم أن العادة ولادة التكرار وهي مجرد سلوك آلي ثابت في حين يذهب آخرون إلى القول بأنها سلوك حيوى تكتسب بفعل حيوية الذات ، وفي ظل هذا الجدل القائم يثار التساؤل التالي : **ما طبيعة العادة ؟ هل هي تكرار آلي ثابت ؟ أم هي سلوك حيوى يخضع لتوجيه الفكر ؟**

العرض (محاولة حل المشكلة) :

1 - عرض سطح الأطروحة : يرى أنصار النظرية الآلية أن العادة في طبيعتها هي مجرد إعادة أي تكرار آلي ثابت لعمل من الأعمال تؤدي بصفة نمطية وعلى وتيرة ثابتة ، إذ يؤكد أنصار هذه الأطروحة أن العادة في ترسيخها تكتسب بالمعرفة والتكرار المستمر

ويستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحججة الأولى : يرى أرسطو أن العادة هي تكرار للفعل أو العمل ، إذ يكفي في نظره أن تكرر أمراً من الأمور حتى يصير عادة وحجته في ذلك أن التكرار يرسخ الفعل ويثبته ويقويه إذ بقدر ما يتكرر العمل حتى يصبح معتاداً يؤدي بطريقة آلية أوتوماتيكية خالية من الوعي فحفظ قصيدة شعرية يتحقق من خلال تكرار قراءتها إذ بقدر ما تتكرر القراءة يقدر ما يترسخ الحفظ ويثبت إذ يكفي النطق بكلمة حتى تتداعى الكلمات الأخرى بطريقة آلية من هنا يقول أرسطو : ((العادة ولادة التكرار))

الحججة الثانية : يرى أنصار علم النفس الترابط أن العادة آلية محضة إذ يؤكد ماك دوغال بأن العادة هي مجموعة من الآثار المادية المنظمة المترابطة في الجهاز العصبي التي ترسخت بفضل مفعول التكرار إذ أن الفعل بقدر ما يتكرر بقدر ما يترك أثاراً ويتعمق أكثر وهو ما يجعل أدائه سهلاً آلياً

ومن جهة يرى بول غيوم أن العادة تتوقف في اكتسابها على عامل أساسى وهو التكرار لأنه يرسخها ويبتها وجهته في ذلك أن العادة مثل الثنية التي ترسم أكثر بفعل طي الورقة أو القماش في نفس المكان أو كالطريق المشقوق الذي يصير كذلك بمقدار سلوكه أو كالنهر الذي يحفره التيار (المجاري المائية) فالعادة بهذا المعنى هي تكرار للعمل أو الفعل مما يجعلها قدرة آلية

الحججة الثالثة : ترى المدرسة السلوكية وعلى رأسها واطسون بأن العادة تترسخ بالتكرار وتتقوى بمقعوله إذ يؤكد بأن السلوك التعودي يكتسب بفعل المنعكس الشرطي ومفاده أن الإنسان أو الحيوان إذا تعرض بجسمه إلى منبهين مثلاً فان أحدهما يصبح يثير نفس الاستجابة التي كان يثيرها الآخر ويستدل واطسون على هذا من خلال تجارب العالم الروسي بافلوف (تجربة الكلب) إذن العادة آلية ثابتة تكتسب بالتكرار

النقد : حقيقة لا يمكن إنكار قيمة التكرار في اكتساب العادة ، غير أن ذلك لا يبرر أن العادة وليدة التكرار فقط ، فالتجربة تثبت أن غياب الإرادة والاهتمام من أسباب الفشل في التعلم واكتساب العادة مهما كانت محاولات التكرار ، فالمريض الذي يتجرع الدواء المر وهو كاره له لا يصير لديه شرب الدواء عادة إذ يتمنى اليوم الذي يشفى فيه ليكف عن شرب الدواء ، ثم إن العادة ليست آلية محضة مجردة من الوعي والفكر لأن القول بذلك يجعل الإنسان في عداد الآلات التي تنعدم فيها الحياة والشعور والوعي وكل مقومات الوجود الإنساني

2 - عرض نقيض الأطروحة : على خلاف الموقف الأول يرى أنصار النظرية الحيوية أن العادة ليست مجرد إعادة بل هي سلوك حيوي تكتسب بفعل عوامل ذاتية وتحدث تحت مراقبة الإرادة وتوجيهه الفكر

ويستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحججة الأولى : تؤكد التجربة أن تعلم عادة من العادات وترسيخها يتطلب حضور عوامل ذاتية أبرزها الإدراك ، الميل ، الإرادة والاهتمام ، أي أن عملية التعلم تقتضي حضور العامل العقلي والنفسي فالفرد لا يستطيع تعلم عادة من العادات ما لم يكن مدركاً لما يتعلم ويتعدّر عليه التحصيل في غياب الاهتمام وانعدام الرغبة وتشتت الانتباه والتركيز فتعلم العادة يستدعي وجود الميل والاهتمام لأن الميل يقوى التركيز ويعزز الاهتمام مما يجعل المرء يقبل على الفعل مهما كانت الصعوبات

الحجـة الثـالثـة : يرى فون دير فيلت أن العادة ليست مجرد إعادة وإنما هي نشاط حيوـي ديناميـكي يحدث تحت سـيـطـرة الفـكـر وتـوجـيهـه الإـرـادـة فالـعـادـة في تـصـورـه هي نـمـوذـج جـديـد في الاستـجاـبة فـمـن خـلـال التجـارـب التـي أـجـراـها توصلـ إلىـ أنـ ((العـادـة لـيـسـتـ مجردـ تـجـمـعـ لـحـركـاتـ قـديـمة)) والـدـلـيلـ عـلـىـ ذـلـكـ هوـ أنهـ اـثـنـاءـ المشـيـ لاـ نـوـدـيـ حـركـاتـ آـلـيـةـ ثـابـتـةـ فـقـدـ نـمـشـيـ بـبـطـءـ وـقـدـ نـمـشـيـ باـسـتعـجالـ وـقـدـ نـوـسـعـ منـ خطـواتـناـ وـقـدـ نـقـلـ مـنـهـاـ إـذـ أـنـ العـادـةـ سـلـوكـ حـيـويـ تـخـضـعـ لـلـإـرـادـةـ

الحجـةـ الثـالـثـة : أكدـتـ تـجـارـبـ عـلـمـ النـفـسـ الجـسـطـالـتـيـ التـيـ أـجـراـهاـ كـوهـلـرـ عـلـىـ نوعـ منـ الـقـرـدـةـ وـهـوـ الشـمـبـانـزـيـ أـنـ اـكـتـسـابـ العـادـةـ يـخـضـعـ لـلـقـدرـاتـ الـذـاتـيـةـ وـأـبـرـزـهاـ الفـهـمـ وـأـسـاسـهـ الـحـدـسـ وـهـوـ إـدـرـاكـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ عـنـاصـرـ الـمـجـالـ الـإـدـرـاكـيـ دـفـعـةـ وـاحـدةـ وـتـسـمـيـ هـذـهـ الـطـرـيـفـةـ بـالـتـعـلـمـ بـالـاستـبـصـارـ (ـ تـجـربـةـ كـوهـلـرـ عـلـىـ الـقـرـدـ)

النـقـدـ : حـقـيقـةـ لـاـ يـمـكـنـ إـنـكـارـ دورـ الـعـوـافـلـ الـذـاتـيـةـ فـيـ التـعـلـمـ وـاـكـتسـابـ العـادـةـ إـلاـ أـنـ ذـلـكـ لـاـ يـلـغـيـ دورـ التـكـرارـ فـالـوـاقـعـ يـشـهـدـ أـنـهـ مـهـمـاـ كـانـتـ قـوـةـ الرـغـبـةـ وـالـاهـتمـامـ إـلاـ أـنـ ذـلـكـ لـاـ يـكـفـيـ فـيـ اـكـتسـابـ العـادـةـ مـاـ لـمـ يـكـنـ ثـمـةـ تـكـرارـ فـتـعـلـمـ عـادـةـ السـبـاحـةـ لـاـ تـرـسـخـ بمـجـدـ الرـغـبـةـ بـلـ يـقـنـصـيـ الـأـمـرـ تـدـريـباـ وـمـمارـسـةـ وـتـكـرارـاـ ثـمـ أـنـهـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ حـضـورـ الـذـاتـ فـيـ العـادـةـ سـوـاءـاـ فـيـ اـكـتسـابـهاـ أـوـ أـدـائـهاـ إـلـاـ أـنـ ذـلـكـ لـاـ يـلـغـيـ صـفـةـ الـآـلـيـةـ فـلـوـ كـانـتـ الـآـلـيـةـ غـائـبـةـ فـيـ العـادـةـ لـمـ اـتـصـفـ هـذـهـ الـآـلـيـةـ بـالـصـلـابـةـ وـالـتـحـجـرـ وـالـجـمـودـ إـذـ أـنـ وـجـودـ هـذـهـ الصـفـاتـ فـيـ السـلـوكـ التـعـودـيـ يـنـمـيـ عـنـ وـجـودـ الـآـلـيـةـ فـيـهـ

الـتـرـكـيبـ : الحـقـيقـةـ أـنـ العـادـةـ قـدـرـةـ مـكـتبـةـ تـحـصـلـ بـتـداـخـلـ عـوـافـلـ الـذـاتـيـةـ كـالـإـدـرـاكـ وـالـإـرـادـةـ وـالـرـغـبـةـ وـعـوـافـلـ مـوـضـوعـيـةـ أـسـاسـهاـ التـكـرارـ وـهـيـ فـيـ طـبـيعـتـهاـ عـلـىـ نـوـعـينـ : عـادـاتـ فـاعـلـةـ وـأـخـرـىـ مـنـفـعـلـةـ فـالـأـولـىـ نـاخـذـهـاـ وـنـوـجـهـهـاـ بـيـارـادـتـنـاـ وـتـخـضـعـ لـوـعـيـنـاـ وـتـنـصـفـ بـالـحـيـوـيـةـ لـأـنـهـاـ تـقـعـ تـحـتـ سـيـطـرـةـ الـفـكـرـ ،ـ أـمـاـ الـثـانـيـةـ فـتـأـخـذـنـاـ لـأـنـهـاـ يـطـغـيـ عـلـيـهـاـ الـرـوـتـينـ وـتـسـبـبـ الـجـمـودـ وـهـيـ آـلـيـةـ تـجـعلـ صـاحـبـهـاـ عـدـاـ لـهـاـ

الـخـاتـمـةـ (ـ حلـ المـشـكـلةـ) : بـنـاءـاـ عـلـىـ مـاـ سـبـقـ نـسـتـتـجـ أـنـ العـادـةـ وـانـ كـانـتـ تـقـومـ عـلـىـ التـكـرارـ فـيـ اـكـتسـابـهـاـ إـلاـ أـنـ ذـلـكـ لـاـ يـعـنـيـ أـنـهـاـ مـجـدـ إـعادـةـ آـلـيـةـ يـغـيـبـ فـيـهـاـ الـفـكـرـ فـالـعـادـةـ بـالـمـعـنـىـ الصـحـيـحـ هـيـ التـيـ تـحـدـثـ تـحـتـ سـيـطـرـةـ الـإـرـادـةـ وـفـيـ ظـلـ تـوجـيهـ الـوـعـيـ وـهـوـ مـاـ يـضـفـيـ عـلـيـهـاـ الطـابـعـ الـإـنـسـانـيـ